معالم تاريخ الانسانية

للكاتب الانجليزى هـ . ج ويلز

ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق

المدرس بمدرسة مصر الجديدة الثانوية

ليس بين المثقفين من يجهل كتاب « معالم تاريخ الإنسانية » للكاتب الإنجليزى هـ.ج ويلز الذى أصدره بعيد الحرب الكبرى الماضية ، وترجع شهرة هذا الكتاب القيم إلى أن ويلز عندما فكر فى المنازعات الدائمة والحروب المستمرة التى تخوضها الجماعات البشرية ، أدرك أنها إنما تعود إلى العصبية الدينية أو العنصرية أو الإقليمية ، وأنه لا سبيل إلى تقارب هذه الجماعات إلا بإيجاد مستوى سام من الثقافة تشترك فيه جميع الأجناس . وإلا بإعادة النظر فى التاريخ وكتابته من جديد كتابة موضوعية نبرأ من شوائب العصبيات وتقوم على أساس العلم الصحيح ، رابطة الأسباب بالمسببات ومسايرة ركب الحضارة فى نشأتها وتطورها حتى استقرت على حالها الذى نراه اليوم فى النزوع إلى التوحد وترسيخ المبادئ الديمقراطية وإقرار حقوق الإنسان وصيانة كرامته . فانطلق ويلز يؤسس كتابه هذا على مبادىء هذه الدعوة الشريفة .

« ومعالم تاريخ الإنسانية » هو حجر الزاوية بين مؤلفات ويلز الكثيرة التى عكف فيها على دراسة مشكلات الجماعة الإنسانية ، والتى يربط فيها بين تاريخ الإنسان وتاريخ الحياة على تعدد صورها وأشكالها .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى جميع اللغات الحية تقريباً وتأخر نقله إلى العربية حتى نهض الأستاذ عبد العزيز توفيق فترجمه فيما تيسر له طيلة أربع سنوات من كل ليل وكل نهار كما يقول فى المقدمة . وها هى لجنة التأليف والترجمة والنشر تصدر المجلد الأول منه ، حاوياً ثلاثة من أجزاء الكتاب الثمانية .

ولعل هذا المجلد الأول هو أعسر الأجزاء وأشقها على المترجمين لأنه يتناول الحقائق الفلكية والجيولوجية وبعض المعارف المتصلة بالحياة على الأرض قبل الإنسان ، وبفحص آثار الإنسان البدائى ، ويظهر كيف نشأت أجناس البشرية وتفرقت لغاتها ، وكيف تفتق الذهن الإنسانى عن عمليات التفكير منذ صارت له لغة . وكيف انتقل التفكر بالإنسان إلى البحث البدائى فى الاديان والفلسفة . وكيف نشأت الزراعة والرعى والملاحة . ويتتبع المدنيات الأولى من آشورية وبابلية ، ومصرية ويونانية ، ويبين خصائص هذه المدنيات ومظاهرها ويتغلغل فى مجتمعاتها . فالكتاب كله تاريخ اجتماعى للانسان . ولهذه الأبواب مصطلحات علمية لم ينقل بعضها إلى لغتنا العربية بعد ، أو لم يتفق المترجمون عليها . وقد بذل مترجم هذا السفر عناء كبيراً فى نقل هذه المصطلحات .

وويلز وإن كان على النشأة والتربية والنظرة ، إلا أنه صاحب أسلوب ممتاز ، جعله فى الطليعة من كتاب عصره وأدبائه ، وهو يعالج التاريخ فى هذا الكتاب بطريقة علمية لم يسبق أن تهيأت لغيره من كتاب التاريخ . والذين يطالعونه يقدرون له هذه المزية فضلا عن الأصالة فى التناول والأداء ؛ وهو إلى ذلك يقدم إلى القارىء ضروباً من التشويق والامتاع لا نظير لها فى كتاب آخر من كتب التاريخ العامة والخاصة على السواء . نرحب كل الترحيب بهذا الجزء راجين أن تبادر لجنة التأليف إلى إصدار أجزائه الأخرى ليأخذ مكانه اللائق به فى المكتبة العربية وهى أحوج ما تكون إليه وإلى أمثاله من جليل المؤلفات ، مقدرين للمترجم ما بذل فى تعريب هذا المؤلف الضخم من عناء وجهد . وبعد فهذا كتاب جليل يجب ألا تخلو منه مكتبة كل أديب وكل مثقف .

الخزف

الخزف الاسلامى المبكر

تأليف الأستاذ أرنلد

يعتمد مؤرخو الحضارات على الخزف لقياس مدنيات الأمم ، فهو من أولى الصناعات التى تمتزج بحياة الإنسان وتتصل بأهم أسباب معاشه ، أعنى بها طعامه وشرابه .

والشرق موطن الخزف كما هو موطن الحضارات والثقافات .

ولما كانت الحضارات تستقر أولا على ضفاف الأنهار — والنيل أقدمها وأعرقها — فقد رأينا المصريين القدماء يحرزون قصب السبق فى صناعة الخزف بل لقد توصلوا إلى استخدامه فى تزيين جدران إحدى قاعات الدفن فى هرم زوسر بصقاره فى أواخر الألف الثالث قبل مولد المسيح ، وهو أقدم ما نعرف عن استخدام الخزف فى تغطية الجدران ، بل لعله أقدم ما نعرف عن الخزف المطلى بالينا جميعاً .

لهذا اهتم العلماء بالخزف فكتب عن الخزف الإسلامى من المصريين على بك بهجت ، ثم الدكتور زكى محمد حسن . ومن المستشرقين فيت وكونل ولام ممن خدموا جامعة فؤاد الأول ، وغيرهم كثير لا داعى لذكرهم ، حتى وصل إلى أيدينا أحدث المؤلفات بقلم الأستاذ أرثر لين أحد رجال متحف فكتوريا وألبرت

والمؤلف عالم وقف دراساته على الخزف ؛ فكتب عن الخزف اليونانى والخزف الفرنسى ، ثم ها هو يكتب عن الخزف الإسلامى فيلم به إلماماً شاملا هادئاً ، ويعالج المشاكل القائمة فى تاريخ الفن بقوة ، ويطلعنا على تمكنه ورسوخه ، فلا يدفع به البحث إلى مزالق الهوى كما حدث للأستاذ بتلر فى مجلده الضخم « الخزف الاسلامى » .

وتناول المؤلف الدول الإسلامية فى مواطنها كلا على حدة ، فيما بين حدود الهند ووادى النيل ؛ فيبدأ بترجمة سريعة للنهضة الفنية والأحداث السياسية التى مهدت لها وأحاطت بها ، ثم يعكف على الأساليب الفنية فى صناعة الفخار والخزف ونقشه وتزيينه وتلميعه بالمعادن والمينا فيقتلها بحثاً ، ثم يعرض لنا المراحل المختلفة التى يمر بها كل لون من ألوان هذا الفن الجميل من ناحية الصناعة ، ويكشف عن المواد الأولية ومزجها وحرقها والتصوير عليها حتى تخرج تحفة فنية .

والأستاذ (لين) منصف للفن والفنانين ، فهو يحدثنا عن التأثيرات الفنية الغريبة عن الإسلام كالبيزنطية والساسانية والصينية ، وكيف تمكن المسلمون من استيعابها جميعاً ومزجها مزجاً هيناً لطيفاً وكيف أضافوا إليها من ذوقهم الحساس وروحهم الشاعرة حتى أخرجوا منها عصارة فنية طيبة تفوح بأريج عبقرية الفنان المسلم . وكيف رسم الفنان المسلم خطوطاً واضحة لفنه فخلق له طابعاً فذاً فريداً له مميزاته الخاصة وشخصيته الواضحة ثم يخلص المؤلف من هذا إلى المقارنة بين مختلف المدارس الفنية فى العالم الإسلامى فيبين خواصها ومميزاتها بوضوح وجلاء بعيدين عن التعقيد الذى يعمد إليه عادة الفنانون .

ويؤمن الكاتب بالرأى القائل بأن الأحاديث النبوية الشريفة التى تنهى عن استعمال الذهب والفضة كان لها أكبر الأثر فى سمو هذه الصناعة وبلوغها ذروة المجد : فإن الخلفاء التمسوا فى أوانى الخزف ما يختلف ما دته عن الذهب والفضة ولا يقل عنها رقة وفخامة وجمالا . ثم ما صحب عصر « النهضة الإسلامية فى دولة بنى العباس من تشجيع للعلوم والفنون ، جذب إلى بغداد وسامرا عباقرة الخزفيين من جميع بقاع العالم الإسلامى وأنشأوا مصانعهم حولها وأغدق عليهم الخلفاء ما شجعهم على التفنن والأتقان » .

أما فى مصر الفاطمية فللمصريين فخر إنشاء مدارس فنية تتمتع بذاتية لا معة تنافس بها سائر المدارس حتى فى إيران نفسها ، وقد أصيب فنان الفاطميين برعشة من رعشات الفن الوافدة أوحت إليه من خزف الصين الذى كان زهرة أسواق الخزف فى العالم .

وأما من ناحية موقف الإسلام من التصوير ، فقد وافق على الكراهية التى أشاعتها الأحاديث الشريفة ولم يأت خبر تحريمها فى القرآن الكريم . على أن الخلفاء لم يتقيدوا كثيراً بهذه الكراهية ، سواء فى ذلك السنيون والشيعة .

ولما بدأ المغول يكيلون للضربات القاسية المتلاحقة للعالم الاسلامى فى مطلع القرن الرابع عشر وقف بنا البحث عند هذا الحد . فقد انتهى المؤلف من الكلام عن الخزف الإسلامى المبكر ويعدنا بأن يتناول ما بلى ذلك فيما يتبع من مؤلفات .

وبالكتاب أكثر من ٢٥٠ صورة ضوئية — أربع منها ملونة كما فى الأصل — مبين عليها مقاسات التحف وتاريخها وأماكن عرضها . وقد أخرجته مؤسسة (فابر أند فابر) إخراجا لا يقل أناقة عما كنا نراه من كتب ما قبل الحرب الأخيرة التى كانت السبب فى حبس التحف فى المخابىء ، وتعطيل الانتاج الفنى طوال هذه السنين .

ولنا أن نزجى التهنئة إلى الأستاذ المؤلف لتوفيقه فى بحثه الذى يهم كل متتبع لسيرة الحضارة الإسلامية وإنتاجها الفنى الفياض وكل مشتغل بالفن أو كلف به .

مصطفى كامل إبراهيم
وكيل اتحاد الثقافة الأثرية